

في مرآة الأدب

سهل بن هرون

بقلم محمود محمد مصطفى

أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية

سنخص هذا الباب بذكر هؤلاء الذين عظم خطرهم وجل شأنهم في الناحية التي أبرزتهم فيها الأيام . ندرس خصائصهم التي أهلتهم لهذا البروز ونتقري فيهم أسباب هذا النبوغ الذي حفظ على الأيام اسمهم وأبقى رسمهم . وإنما نريد بتجلية أمور هؤلاء العظماء ما يريده كل مؤرخ من التنويه بذكر الرجال والاشادة بما لهم من الأعمال . وهو روح الأمل يثبها في كل ناشئ وسبيل القدوة ينيره لكل سالك . وجانب الحقيقة يخدمه بإذاعة فضل ستره أهله ووزن عبقرية ججدها عشراؤها وإقامة حجة أدحضها الزمان وتعديل شهادة زيفها جائر الأحكام .

وانك لو اجد في سهل بن هرون كل هذه النواحي فهو رجل له خطره في الأدب والحكمة وله أثره في سمو النفس وعلو الهمة وكذلك جرى عليه حكم الأيام في دروس المعالم وخفاء الآثار فصرنا لانجد في التعريف به إلا أسطراً قليلة في أوسع الكتب مادة وأحفلها بتاريخ الأدباء والعظماء

سهل فارسي الأصل من أهل ميسان وهي كورة بين الأهواز وواسط والبصرة . ولقد كان لفارسيته هذه أثر عظيم في كل ما صار إليه من فضل ، فهو نسل هؤلاء الكرام أمة المدينة والآداب والعلم والملك والسياسة والحدق نشأ يحمل دماء آبائه العظماء . وقد نشأ في الولاء

أو شبهه في سهل حكم العباسيين حين كان هذا الولاء رحمة عظيمة للموالى
وكنفاً مرمياً راعى فيه ناشئهم وينعم بخيره كبيرهم ، إذ العباسيون قد اطرحوا
الأنفة المنكرة وجانبوا النعمة الطائشة وخلطوا أنفسهم بهم اليهم وعشرائهم
من أهل البلاد المفتوحة ولا سيما الفرس ، ولكن القيد ذل ولو كان من
ذهب . فكان هم سهل ومن علي شاكلته من الموالى أن يطلب الرفعة من
طريق العلم ينص في طلبه عزيمة وينضى مواهبه وعبقريته ، يأخذه أبوه
بذلك أيام طفولته لما يرى من دولة العلم القائمة وحلبة الفضل المتساوقة
ودسوت الوزارة تهيأ لكل ذى قلم فارغ ، وأدب بارع ، ومجالس الخلفاء
تثنى فيها الوسائد لكل عالم بان خطره وجل قدره .

وهكذا كانت نشأة سهل بن هرون بن راهبون فأنه بعد أن ولد
بميسان كما ذكرنا أعد لطلب العلم فانتقل إلى البصرة ، ولم تكن تهض به
حين ذاك إلا البصرة ، عش العلماء ، ومنتدى الأدباء ، ومربدها عكاظ
الشعراء ، وحلقات مساجدها منتضل الآراء ، لا تسمع بعالم أو أديب ،
أو كاتب أو شاعر ، أو نحوى أو فيلسوف . إبان نشأة سهل إلا والبصرة
منشؤه ومبائه ، وكل طارق على بغداد بعد ذلك فإن البصرة منزعه ، ثم هي
بعد منقلبه . فالخليل بن أحمد وسيدويه ، والأصمعي وأبو عبيدة ، وخلف
الأحرار من اللغويين والنحاة ، وواصل به عطاء وإبراهيم بن سيار النظام
من العلماء والمتكلمين ، وخالد بن صفوان وشبيب بن شذبية من الخطباء ،
وبشار وأبو نواس وغيرهما من الشعراء كل أولئك عاشوا بها مجتمعين
أو متعاقبين .

طلب سهل العلم الذى يسهل طلبه ويقبل موقعه ، وتكثر نواحي
الاستفادة به ، وهو الأدب وما يتبعه من كتابة وشعر ودراسة للعلوم

الكونية ، ذلك أن هذا النوع من الطلب يتيسر لكل طالب ويضمن النجاح فيه لكل سالك ، فأقل ما يطمع فيه الكاتب أن يكتب لوال من الولاة ، أو لسرى من الأسرياء ، يتولى تدير شأنه ، وينشيء رسائله (وما أكثر ما يرغب هؤلاء في التفوق في رسائلهم) ويتلقى ما يرد إليه ويحسب دخلة ومصرفه . هذا مطمع كثير ممن يتناولون الكتابة ويدرجون عليها ، وإذا غلب على أحدهم الشعر فهو أيضا باب للرزق كان مفتوحا على مصراعيه في تلك الأيام . يقصد أحدهم واليا في عمله أو عظيما في قومه أو قائدا في ثغره والقوم يومئذ عرب ، تهزم الأريحية ويملك مسامعهم الكلام المنمق ، والقول المديح .

وما نريد بقولنا هذا أن اللغة والنحو كانا كأسيدين أو أن الموالي لا غناء لهم فيها . ما نريد ذلك فإن من علماء اللغة والنحويين من أربى في المنزلة وحصل من الثروة ما لم يكن لشاعر من أقرب المقربين ، وأنت إذا تتبعته أخبار الخلفاء والوزراء رأيت مجالسهم لهؤلاء وعنايتهم بشأنهم لا تقل عن احتفالهم بالشعراء وجلووسهم لهم . وقل أن تسمع بشاعر أرسل الخليفة في طلبه وأمر بحمله اليه على أوطأ مركب وأحسن حال فالشعراء هم الدين كانوا يقصدون الخلفاء ويقفون بأبوابهم ويحتالون في الوصول إليهم حتى إذا وصلوا ملئت أفواههم درأ او حجوهرهم بدرأ

فأما العلماء فلهم زمااتهم ووقارهم ولهم تصونهم حتى يطلبوا فتعد لهم البرد ويفدون أكرم وفادة ثم يكون لهم في مجلس واحد الغنى الذي يبقى في أعقابهم ويتصل في ذرياتهم . وما أجدرنا أن نسجل فضل خلفاء المسلمين في هذا الباب لولا أننا نكون قد خرجنا عما رسمناه لأنفسنا من الحديث عن سهل بن هرون ولم يمنع سهلا من الاشتغال باللغة والنحو أعجميته فقد كان من علماءهما

كثير من الأعاجم بل الأعاجم الذين يرتضخون لكثرة فقد كان أبو عبيدة معمر بن المثنى الذى أحاط بعلم العرب وأخبارهم وأنسابهم والذى روى جميع أيامهم — كان على سعة علمه باللغة إذا أنشد بيتاً لم يقرأه، إذا لم يوجه سهلاً إلى ما نشأ فيه من الأدب والشعر والحكمة إلا محض ميله ورائد استعداده .

ذكروا أنه كان أديباً، كاتباً، شاعراً، حكماً . فأما كتابته فظاهرة كل الظهور فى رسائله التى سمح بها الزمن وفيها على قاتها متعة وجمال يزيد فيه الحسن بتكرار النظر ويتجلى إبداع الفن مع انطاس الأثر . وسنفردها كلاماً فى هذه الترجمة

وأما شعره فلم نثر منه على كثير تمتلئ به اليد ويستطاع به الحكم ولكنه من الشعر الذى جنت عليه الفلسفة، والفلسفة غنية بالمعنى فقيرة فى اللفظ تلف السرب من بناتها فى ملاءمة وتجمع الرهط من أنبائها فى عباءة والطبع العربى كريم متخرق فى كرمه يمنح المعنى الواحد الكثير من كلبه . هذا ما جعل شعر سهل وغيره من أهل نزعة لا يمثل فضلهم ولا يبرهن على نبوغهم فانظر إليه حين يقول

إذا أمرؤ ضاق غنى لم يضق خلقى عن أن يرانى غنيا عنه بالباس
لا أطلب المال كى أغنى بفضلته ما كان مطلبه فقرا من الناس
وأنا أقسم عليك (أيها القارىء) بالأدب الذى تنشده أن تديم النظر
فى هذين البيتين وأن تكرر تلاوتهما وتطلب المعنى فهما قبل أن تنظر فى
شرحى لهما حتى تتحقق قولى وتثبت حكمى الذى قدمته من ظلم الفلاسفة
للغة وإرهاق عباراتها القصيرة بالمعانى الجاررة فيكتفون بالسطر الواحد
فيما يحتاج فى خدمته إلى باب وبالفقرة فيما لا يحصى . فيه كتاب .

يقول سهل فى هذين البيتين : إذا صادفت إنساناً زمن المروءة ،

ضيق العطن ، كز الأنامل ، يرى الجود مرزأة ويعد البخل مغنا فحين أقصده يتجههم لى ويقطب ما بين عينيه ويعتل بغياب المال ، وكثرة العيال ويضيق نى ذرعا ويحاول لى بكل وسيلة دفعا - إذا صادفت مثل هذا وجدت فى كرم نفسى منأى عن أذاه ، وفى عفتى غنى عن غناه . فصدرت عنه يائسا محتقرا أعطاءه ، زاريا على المال وما يجر وراءه .

وهكذا شأنى أصدف عن المال وهو غاية كل حى يقضى به لباته ، ويستوفى من اللذة حاجته ، أصدف عن المال وأعف عن طلبه والتماسه من الناس إذا كان ذلك سيوقعنى فيما لقيته من هذا الشحيح الذى أشاح بوجهه عني ، وحقر كرامتى وطاش من عزتى فصدرت عنه بذل السؤال ، وخيبة الآمال .

ولن يتم لك فهم معنى هذا الشعر حتى تحتاج أن تقول لك قائل إن « ما » فى قوله « ما كان مطلبه فقرا من الناس » مصدرية ظرفية تدل على معنى المدة وتسبك الفعل بعدها بمصدر وأن معنى البيت وترتيبه هكذا . لا أطلب المال مدة كون طلبه من الناس فقرا أى فيه ما فى الفقر من الذلة والهوان .

وبعد فما أظن أننا أسرفنا فى شرح هذين البيتين أو تزيدنا على قائلهما فيما قصد من معنى احتيالا على الأطالة فى الشرح وتدعيما لدعوانا من أن السطر من شعر الفلاسفة يحتاج إلى باب يعقد لتوضيحه ويبان مراميه .

سهل والحكمة

أما الحكمة فى حياة سهل فلها تاريخ طويل وآثار كبار . ذلك أنه قد اتفق فى نشأة سهل أن كانت سوق الحكمة رائجة وسيلها مهيأ

أظل الناس عهد الدولة العباسية وقد نسى العرب بداوتهم وتحلوا من خشوتهم وخالطوا عسراهم وماجت بهذه العناصر المتمازجة مدنيهم ، ورسخت على الأيام قدم مدنيتهم فلم يجدوا بدا من هذه الضرورة اللازمة

للمدينة وهى العلم وفيه الطب لعلاج الأبدان والحكمة لأصلاح النفوس
وتصحيح الأفهام والحساب لضبط أموالهم والهيئة لحساب أيامهم واهتداء
ربابينهم فى بحورهم

فكان من أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين أن ندب الناس
للنظر فى كتب القوم وترجمة ماتحفز إليه الحاجة ، وكان منه على شدة بخله
جود كثير حتى إنه أعطى جرجيس بن بختيشوع رأس أطباء نيسابور
عشرة آلاف دينار وأمره أن يترجم فى الطب . كذلك ترجم له ابن المقفع
كتاب المقولات ، وكتاب تحليل القياس لأرسطو ، وكتاب إيساغوجى
الذى ألفه فرفيوس الصورى وجعله المدخل إلى كتب أرسطو المنطقية
وأشهر ماترجمه ابن المقفع أو هو الكتاب الباقى من آثاره للآن ، كتاب
كليلة ودمنة الذى ذاعت له شهرة كبيرة فى أيامه وبعد ذلك حتى نظم
شعرا ليسهل تلقيه لآولاد الملوك والأمراء ، ومن جعله شعرا فى العهود
الأولى أبان بن عبد الحميد اللاحق رجل البرامكة ، ومعلم أولادهم
ومن قوله فيه :

هذا كتاب أدب وحكمة وهو الذى يدعى كليلة دمنه
فيه ضلالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله والسخفاء يشتهون هزله
وهو على هذا يسير الحفظ لذ على اللسان عند اللفظ

ثم كانت أيام الرشيد ، وقد بلغت الدولة أوجها غنى ونظاما وقوة
فراجت الترجمة فى أيامه ، وأعان عليها البرامكة ، أسبق الناس إلى الفضل
وأعرفهم بقدر العلم ، فحروا من همة الرشيد ، وجادوا من تلقاء أنفسهم
فيما ترجم برسمهم ، حتى يقال أنهم أعطوا وزن الكتاب المترجم ذهابا .

وكان من عناية الرشيد بالترجمة أن أنشأ ببغداد دليلاً سهاها دار الحكمة جمع فيها كل ما عثر عليه في ذلك الحين من كتب هندية وفارسية ويونانية . وقد احتجنا إلى هذا الاستطراد ، لأن الحياة سهل اتصالاً وثيقاً به ، فأنهم ذكروا أنه تولى دار الحكمة على أيام المأمون ، فكان إليه تديرها ، ولا شك أنها كانت على أيام المأمون أكثر محتويات منها على أيام الرشيد ، فأن همة المأمون في الترجمة مشهورة ذائعة ، حتى إن المروى عن البرامكة من جعل أجر الكتاب المترجم ، وزنه ذهباً ينسب في كثير من الكتب إلى المأمون لا البرامكة .

والمأمون هو الذى بلغ من عنايته بالترجمة أن جعل للترجمة مدرسة يتعلم فيها أبناء العرب اللغات المختلفة حتى يجيدوا النقل عنها ، وكان من آثار هذه المدرسة وكتبها المستعملة بها معاجم عربية يونانية وأخرى عربية لاتينية وضعت ليحذق بها أبناء العرب هذه اللغات . ويقال إن في مكتبة الاسكوريال نسخاً من هذه المعاجم .

ومن عنايته بالترجمة كذلك أن جعل للمترجمين يوماً في الأسبوع يجتمعون فيه بعلماء اللغة ليطالع هؤلاء على عملهم فيصححوه أو يقرؤوه . وما أجددنا أن ننسب إلى المأمون الفضل في السبق إلى إنشاء المجامع اللغوية لأن مارسمه للقوم من عمل هذا اليوم في الأسبوع هو الغاية الأخيرة من إنشاء المجامع اللغوية

وإذا قيس الغائب بالشاهد وأقرت الأمور في نصيبها ، كان سهل بن هرون رأس حكماء زمانه والعلم الفرد بينهم حتى جعل إليه أمر الحكمة يديره فترجم الكتب بأمره ، ويصار في صوابها أو خطئها إليه . ثم هو بعد المؤمن على هذه الناحية من العلم التي خصها المأمون بعنايته . لم يكن سهل من هؤلاء العلماء البخلاء بعلمهم أو المجدين في نتاجهم

كما نرى من كثير منهم يئنا وأحدهم لا يدافع في علمه ، ولا ينازع في فضله
ثم هو مجذب على خصب كالركاز باطنه يلمع ، وظاهره بليق ، لم يكن سهل
من يخلون على الناس بعلمهم ، أو لعله كان مضطراً إلى التأليف والترجمة
ليدل الناس على ما عنده من فضل ولينال بذلك منزلة عند رجال الدولة على
حين لا ينفع المرء إلا عمله فكان من أثاره كتاب ثعلّة وعفرة . وكتاب
النمر والثعلب وكتاب أسل بن أسل ، وكتاب اسباسيوس وكتاب المخزومي
وكتاب الهذلية وغير ذلك ، وليس من كتبه هذه شيء بين أيدينا ،
ولا وصفها أحد من المؤرخين حتى نعرف موضوعها شأن كثير من
الكتب التي ضاعت وبقي منها وصف ما تحتويه عن اطلاع عليها . ولم يذكرها
إلا أنه أخرج كتاب ثعلّة وعفرة يعارض به كلية ودمنة ، الذي طبقت
شهرته وذاع صيته ، وقد حكم المسعودي بأنه يزيد على كلية ودمنة بحسن
نظمه ، ولم يذكرها منه إلا كلاماً لا يدل على موضوع الكتاب لأن هذا
المروى حكمة يصح أن تكون قد وردت في أثناء كلام على لسان قائل
وذلك لا يبين اتجاه الكتاب ولا يحد موضوعه ، وهل تستطيع الحكم
على كلية ودمنة إذا قرأت حكمة وردت على لسان كلية أو دمنة أو الثور
والأسد مثلاً فتستدل بها على روح الكتاب واتجاهه . وإليك فاسمع
ماردده من كتاب ثعلّة وعفرة « اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق
مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء
في الفريضة شاهد على وهن العقيدة وتقصير الروية ، ومضر بالتدبير ،
ومخل بالاختيار . وليس في نفع محمد به عوض من فساد المروءة ولزوم
النقيصة » .

ولولا أن الجاحظ وهو من المعجيين جداً يسهل قد خلّد لنا رسالته
في البخل في كتابه البخلاء لكنا لا نعلم من سهل شيئاً ولا نرى من كلامه أثراً

والآن فلنذكر النواحي الأدبية من سهل فنصف لك كتابته وما كان يؤثره من المعاني والأغراض فيها ، فنقول إذا صدق على كاتب في أيام سهل بن هرون أنه نسيج وحده فأصدق ما يكون هذا القول على سهل ، وما ظنك بكاتب يجانب طريقة الناس ويشرع في سبيل لم يعبدها أحد قبله ، ويطلب المعاني التي لم يفرعها كاتب سواه ، لقد عهدنا أن الاغراب قديماً كان باللفظ فيمعن الشاعر أو الكاتب وراء غريبه يطلبه في مطارح البيد أو يعاظم فيه ويعتدى على المعهود من نظمه كما كان يفعل الفرزدق ومن على شاكلته يتلمس بذلك الشهرة ، ويرجو أن يغدو حديث الناس وموضوع جدلهم كما أراد ذلك المتنبي فيما بعد ودل على مراده بقوله :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر القوم جراًها ويختصموا

على أن مثل المتنبي أضاف إلى الاغراب باللفظ الاغراب في المعنى ولكن من ناحية غير ناحية سهل فإن المتنبي كان يعتمد إلى المعنى الظاهر فيحذف من أجزائه ويعكس قضاياه ثم يمنحه من اللفظ مثله في الاضطراب والغموض فيخرج المعنى السهل عويصاً منكراً ، فأما سهل فليس هذا شأنه ولكنه يعتمد إلى الموضوع الذي لم يخطر على بال ، ولا عولج من قبل بمقال . فيفيض فيه ويتناول جميع نواحيه ويجعله بما يضرب فيه من مثل ، ويكثر من علل واضحا جلياً مأنوساً وكأنك تقرأ منه حديثاً معاداً مكروراً . فتستمر مأخوذاً بسحر بيانه حتى تنتهي فإذا به قد سخر من عقلك وأقنعك بمحاله ، وألزمك حكم جداله . وإذا بك أمام زعم لا يقره عقل وقد آمنت به وأذعنت له . فلا يسعك إلا أن تستعين بالله من شيطان ، هذا البيان . من منا يستسيغ أن يحكم لبداذة الهيئة على اتساقها ولجهامة الخلقة على جمال الطلعة ، ولقدارة الثياب على نظافتها ولتطامن الذل على عز الكرامة ولكن سهلاً سيجعل ذلك في رأينا سائغاً سهلاً حين نقرأ له :

« لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجا ، أو وصفا وكان أحدهما جميلا بهيئا ولباسا نديلا وذا حسب شريف . وكان الآخر قليلا قميئا وباز الهيئة دميما وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة ، وفي درب واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم يقضى للقليل الدميم ، على النيل الجسم . وللباذ الهيئة على ذى الهيئة ، ويشغلهم التعجب منه عن مناوأة صاحبه ، ولصار التعجب على مساواته له سببا للتعجب منه ، والاكثر في شأنه علة للأكثر في مدحه ؛ لأن النفوس كانت له أحقر ، ومن بيانه أياس ، ومن حسده أبعد . فلما ظهر منه خلاف ماقدروه ، وتضاعف حسن الكلام في صدورهم كبر في عيونهم لأن الشئ من غير معدنه أغرب . وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف ، وكلما كان أظرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبعد . وإنما ذلك كنوادر الصبيان ، وملح المجانين . فأن استغراب السامعين لذلك أعجب وتعجبهم منه أكثر ، والناس موكلون بتعظيم الغريب واستظراف البديع وليس لهم في الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم ، من الرأى والهوى مثل الذى معهم فى الغريب القليل وفى النادر الشاذ . وعلى هذا السبيل يستظرفون القادم إليهم ويرحلون إلى النازح عنهم ويتركون من هو أعم نفعاً وأكثر فى وجوه العلم تصرفاً وأخف مؤونة وأكثر فائدة . »

ولنقف عند هذا الحد فى هذا المقال مرجئين بقية البحث فى كتابته ونوادره الدالة على مقدار عقله إلى العدد الآتى إن شاء الله .